5

عيون الملك حسين

obeikandl.com

obeikandl.com

عرفت الأغنية العربية منذ سنوات طويلة طابع الفردية، ويري الناقد والمؤرخ كمال النجمي: « أن الأغنية الفردية اتجهت إلى الطابع القومي المشترك في طريقة الغناء والتلحين، وهذا من أسباب ما تتمتع به حتى الآن من كثرة الجمهور الخاص بها في البلاد العربية، وبخاصة إذا أديت بأصوات محبوبة، وقد طافت أم كلثوم بالمغرب، وتونس، ولبنان، والكويت، وأبو ظبي، والسودان، وليبيا، فكانت أغانيها تقابل في كل مكان بتذوق وفهم؛ لأن أغنيتها هي الأغنية النموذجية عن المجتمع العربي، ولهذا اتخذ الالتفاف حول فن أم كلثوم شكلًا قوميًا... تتمثل فيه إذا أمعنا النظر وحدة الذوق الغنائي لدي شعوب الأمة العربية».

لم يقتصر فهم وتقدير عبد الناصر لقيمة أم كلثوم على أدائها للغناء الوطني فقط، بل إن فهمه الأكيد لها تطابق مع قول النجمي، بأن الالتفاف حول فنها أخذ شكلًا قوميًا.. وبالتالي كان عليه الحفاظ على هذا الشكل ،الذي أخذ أبهي صوره في التفاف الجماهير من المحيط إلى الخليج حول المذياع في الخميس الأول من كل شهر لسماع ما تقدمه مطربتهم المحبوبة، وكان لعبد الناصر وجهة نظر وآراء في ذلك حافظت على هذا الشكل.

يقول الإعلامي أحمد سعيد: بعد أن أصبح صوت العرب إذاعة متكاملة يستمر إرسالها حتى الواحدة صباحًا، كنا نأتي يوم حفل أم كلثوم في الخميس الأول من كل شهر، ونقدم سهرة خاصة بنا ليس فيها أم كلثوم، مما أثار ضيقها وشكواها، وكانت حجتها واضحة ومعقولة وهي أن العرب يحجزون تذاكر لحفلاتها من جميع أنحاء الوطن العربي، ويأتون صباح يوم الحفلة، ويغادرون القاهرة في اليوم التالي، فهي إذن مطلوبة عربيا، فلماذا لا يذيع صوت العرب حفلتها؟ طلبتني فذهبت إليها، وطرحت على سؤالها فشرحت لها، إن البرنامج العام يذيع حفلاتها بإرساله القوي الذي يصل للمنطقة العربية كلها (أوائل الستينيات من القرن الماضي)، ونحن لنا

مستمعونا، ولا نريد أن نخسر واحد منهم بسبب تركيز الاستماع على إذاعة واحدة، فقد لا يجذ ١٠٪ الاستماع إلى حفلات أم كلثوم، فيخسر الإعلام المصري هذه النسبة، لذلك فنحن نقدم لهؤلاء مرة أخري حتى يمكننا تغطية المنطقة العربية، واستيعاب كل المستمعين.

يضيف سعيد: استمعت أم كلثوم إلى وهي غاضبة، واتهمتني بأنني من أنصار عبد الحليم حافظ، فضلا عن اتهامات أخري من هذا القبيل، حتى إن فريد الأطرش نفسه قد اتهمنا وهاجمنا بنفس التهمة، وهي أننا نتشيع لعبد الحليم حافظ وأوصلت أم كلثوم شكواها إلى د. عبدالقادر حاتم وزير الإعلام الذي كلمني فقلت له: هذه مسألة براجية. قال: ألا تعرف حلا، قلت له: لا أعرف.

وأبلغت أم كلثوم الأمر في النهاية إلى الرئيس عبد الناصر، وفي حفل العشاء الذي أقامه الرئيس تكريمًا لضيفه الرئيس الباكستاني «أيوب خان» حضرت بصفتي عضوًا بمجلس الأمة، ووكيلًا للجنة الشئون العربية، ووجدت الرئيس عبد الناصر يمسكني من يدي ويقول لي :

حلوا مشكلة أم كلثوم، ليس عندنا غيرها، ولا يوجد عندنا أحسن منها، قلت للرئيس : يا فندم إذا كانت أوامر انفذ فورًا، فقال عبد الناصر : لا شأن لي أبحث عن طريقة ترضي أم كلثوم.

ويروي الكاتب والسياسي الراحل فتحي رضوان أول من تولي مسئولية الثقافة في عهد ثورة يوليو (منتصف الخمسينات) قصة كان طرفها، وتبدأ من اصطحاب عبد الناصر لرضوان وعبد الحكيم عامر في سيارته إلى دار الأوبرا لمشاهدة مسرحية «دموع إبليس»، وهي من تأليف فتحي رضوان، وبعد مشاهدة المسرحية، وهم في طريقهم إلى العودة، دار حوار طويل في السيارة بين الثلاثة حول الفن والثقافة، ورؤية عبد الناصر الخاصة للمسرحية.. يرويه فتحي رضوان على النحو التالي :

قال جمال لعبد الحكيم: «تعرف يا حكيم، إن هذا هو العمل الفني الثاني الذي أراه لفتحي رضوان، فقد رأيت له من قبل فيلم «مصطفي كامل». فقال عبد الحكيم: «أنا شاهدته معك».. فذكرتهما بأنهما رأياه في حفلة خاصة بسينما «ريفولي» احتفالاً بالعقيد الشيشكلي (الرئيس السوري)، فقال عبد الناصر: «ليلتها.. أنا كنت طوال الفيلم خائفًا على مصطفي، ومشفقًا من وفاته، مع أني أعرف أنه مات منذ أكثر من خمسين سنة، هذا هو سحر الفن الجيد».

ومضي عبد الناصر في كلامه موصيًا فتحي رضوان بضرورة عمل فيلم عن محمد فريد، وأشار إلى أنه يسهر مع الإذاعة حتى نهاية برنامجها مع «أم كلثوم» و«أضواء المدينة ».. وقال:« أنا عارف أن فتحي رضوان غير راضي عن طول حفلات أم كلثوم واستمرارها إلى الرابعة صباحًا، وكثرة ترديد المقطع الواحد، عشرين مرة، أو أكثر، والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد».

يضيف رضوان: عجبت حقيقة كيف عرف عبد الناصر هذا الرأي، وحاولت أن أذكر متي سمع مني هذا الكلام، ولم أستطع، ولكنه ضحك على طريقته التي أسميها (طريقة الرشف)، وقال: «في ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم في نادي الضباط احتفالا بالملك حسين ملك الأردن (١٩٥٢-١٩٩٩م)، ولما خرجنا نوصله، وكنت أنت (موجهًا كلامه إلى فتحي رضوان) رئيس الوفد المرافق له، كان منظر الضباط ساعة الانصراف، وعدد غير قليل منهم نائمًا تمامًا على مقعده.. لا يرضي أحد، وكانت عيون الملك حسين حمراء، وكان يتمايل من شدة التعب، وفي اليوم التالي بدأ الحديث تعليقًا على الليلة، فسمعتك تكلم أحدًا على مقربة مني، ووصل إلى سمعي كل هذا».

واصل عبد الناصر كلامه لرضوان :«أنا معك، ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف في وجه التيار».. فرد رضوان: «ولكننا واقفون في وجه التيار فعلاً، ألست

تقيم السد العالي؟».. فرد عبد الناصر: «السد العالي معلش، ولكن يأتي على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم».. فقال رضوان: «ولكن العمل الفني، في كل مكان، وسيلة لرفع معنويات الناس، وتزويدهم بجرعة منعشة ومنشطة ومبهجة، يخرجون بعدها، أكثر إقبالًا على الحياة.. ولكن حفلات الطرب عندنا «عمليات تعذيب»...ينام الناس في اليوم التالي إلى الظهر، ويستيقظون يشكون من الصداع، وجوههم صفراء، وشهيتهم مسدودة ومزاجهم عكر».. فرد عبد الناصر: «أنا معك.. معك.. ولكن الناس ينسون أنفسهم إلى الصباح، ويكونون، في اليوم التالي بالصورة التي تصفها»... فقال رضوان : «إن التكرار في أغانينا أثره الذاتي والخلقي مدمر، إنه وسيلة للتنويم أشبه بأغنية النوم للطفل»، فعلق عبد الناصر :«لا تخف.. لن يستمر هذا كثيرًا.. » ،ثم توقف عبد الناصر ليقول لرضوان : «بس إوعي تغضب أم كلثوم»، فضحك رضوان قائلاً : «لا سبيل لإغضابها» ، ورد عبد الناصر: «هذا حق».

يضع الناقد الدكتور على الراعي هذه الحكاية في سياق تحليلي أشمل.. يقول: موقف عبد الناصر من الثقافة والإعلام يحتمل كثيرًا من التأويلات.. كان يصرح في بعض المناسبات، بأنه على الفن أن يمسح هموم الناس، ويسري عنهم، وكان يضرب المثل بنفسه، إذ يعود إلى بيته مثقلاً بأعباء الحكم، فيجد في فيلم سينمائي خفيف بعض الراحة، وكان يضيف أن العامل الذي يجهد ساعات طويلة في أرضه ومصنعه له الحق في كل ما يرفه عنه ويسليه.. إلى جوار هذا كانت نظرة عبد الناصر للفن والثقافة نظرة تسيسية في المحل الأول، يقرب الفن والثقافة إلى قلبه ما داما قدما الخطة السياسية العامة للبلد الذي تولي حكمه.. لهذا نراه يوصي فتحي رضوان بأن يهتم بإنشاء فرق للفنون الشعبية، بعد أن عجز صلاح سالم عن أن يقوم بهذا العمل، لكثرة مشاغله، وقلة قدرته على التنفيذ، ونراه أيضًا يفطن إلى القيمة الجماهيرية

والدعائية التي تمثلها أم كلثوم في مصر وباقي أجزاء الوطن العربي، فيقول لفتحي رضوان: «اوعي تغضب أم كلثوم» فيجيب رضوان: «لا سبيل إلى إغضابها».

يضيف د. على الراعي: هناك نقطة مهمة في موقف عبد الناصر من أم كلثوم تثبت بعد نظره. فسيدة الغناء العربي كانت عاملًا فنيًا موحدًا للعرب جميعًا من المحيط إلى الخليج، وأي محاولة للتقليص من نشاطها، كما كان يدعو رضوان، كان كفيلاً بأن تفقد مصر بعضًا من نفوذها الفني الذي هو عدتها دائمًا في حالة يسر وعسر، والدليل في كل بلد عربي استضافتها، وجمعت لبلدها عملات أجنبية كانت في أشد الحاجة إليها، كما أسهمت في رفع الروحة المعنوية لمصر، ولباقي العرب بعد الهزيمة الموجعة.

سمة التطويل والإعادة والتكرار التي انتقدها فتحي رضوان، وعلق عليها عبد الناصر، وأوضحها على الراعي هي وجه ثاني لعملة يحمل وجهها الأول اتهامات لمضامين الأغنية الكلثومية، بأنها كانت التخدير الذي يستخدمه عبدالناصر للشعب، وكان فريق من اليسار يردد ذلك حتى صارت أم كلثوم قسمة بين اليمين واليسار في المرحلة الناصرية، ويقدم الشاعر سيد حجاب شهادة كاملة ومعبرة عن هذا المنحي يقول فيها: في مستهل الستينات من القرن الماضي، كنت وبعض الزملاء اليساريين ندرس هندسة المناجم بجامعة القاهرة وكان يحلو لنا أن نعابث زميلنا «توحيد رامي».. ابن شاعرنا الرائع «أحمد رامي»، وكانت مغايظتنا له وغلاستنا عليه تدور دائمًا حول بعض أشعار أبيه التي تغنت بها أم كلثوم من مثل «حتى الجفا محروم منه» أو «عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك». كنا نعير «توحيد» أن رؤية أبيه «رامي» للحياة والحب تجاوزها الزمن، وأن هذه المشاعر المرضية التي يعبر عنها تحمل قدرا عاليا من «الماسوشية»، وأن هذا النوع من الشعر والغناء لا يلبي الحاجات الروحية لشباب جيلنا، وأن الفن الأقرب لمشاعرنا والأصدق تعبيرا عن

زماننا هو غناء عبدالحليم لأشعار محمد على أحمد ومرسي جميل عزيز، وألحان الموجي، والطويل.

وكان توحيد رامي يرد على استفزازاتنا: «وانتوا إيش فهمكوا – يا شيوعيين انتو – في الفن ولا الحب ولا الحياة!».

يواصل حجاب :في تلك الأيام كانت تشيع بين بعض اليساريين الشباب بعض المقولات الخائبة حول الفن والحياة، فالفنون مرآة للواقع، ونجيب محفوظ كاتب البورجوازية الصغيرة، وإبداعاته الروائية توقفت عند حدود الواقعية النقدية! بينما محمد صدقي هو أديب البروليتاريا، ورواياته في قالب «الأوتشرك» الذي تذوب فيه البطولة الفردية في البطولة الجماعية، وهي النموذج الأمثل للواقعية الإشتراكية!!، والبشارة الأولي بتلك الواقعية الاشتراكية هي «أرض» الشرقاوي!! وكيف؟! ألم يتحول عبدالهادي فلاح الأرض الشاب إلى عامل صناعي بالمدينة مشيرا إلى طريق الخلاص القادمة!!

يضيف حجاب: في إطار تلك المقولات اليسارية الطفولية كان هناك من يقول إن عبدالوهاب هو مطرب الملوك والأمراء، وأنه خان رسالة فنان الشعب سيد درويش، وأن غناء أم كلثوم يعكس فكرًا إقطاعيًا، وأن عبدالحليم هو صوت الطبقة المتوسطة الصغيرة! بينما محمد رشدي – بعد ذلك – هو صوت جماهير الفلاحين والعمال!! وفي تلك الأيام كان بعض اليساريين الأوروبيين يقولون إن «فرانكو» يحكم إسبانيا بثلاثة أشياء تبدأ كلها بحرف الفاء «F»، وهي الفالانج «حزبه الفاشستي» والفلامنكو «الرقصة الإسبانية الشهيرة» والفوتبول «كرة القدم»، واستعار بعض اليساريين المصريين هذه المقولة بعد أن حوروها بكثير من التعسف والتحذلق ، فقالوا: إن عبدالناصر يحكم مصر بثلاثة أشياء تبدأ كلها بحرف الآء «الألف» الكورة والحشيش وأم كلثوم، ورغم شيوع مثل تلك المقولات

الخائبة بين بعض شباب اليساريين – آنذاك – إلا أنهم «متي يختلي الواحد منهم بنفسه» كانوا يقرون بأنهم يعشقون روايات نجيب محفوظ ويذوبون نشوة مع صوت عبدالوهاب وشدو أم كلثوم، وربما برروا لأنفسهم إدمانهم السري للغناء الكلثومي، بأنها برغم غنائها لبعض المشاعر التي يرفضونها، قد تغنت – أيضا – بالكثير من روائع شوقي وحافظ والخيام وغيرهم، وأنها غمرت القلوب بفيض من المشاعر النبيلة والقيم السامية التي تزخر بها هذه الروائع، وربما زايدوا وتزيدوا فقالوا إنها هتفت مع الجماهير في وجه الاحتلال: «وما نيل المطالب بالتمني.. ولكن تؤخذ الدنيا غلابا»، أو أنها دعت إلى الإشتراكية في عهد الملكية وهي تقول للرسول ﷺ: «الاشتراكيون أنت إمامهم» ثم أنها هي التي تغنت بمصر «التي في خاطري» وهللت ليوم الجلاء: «والله ما دون الجلاء ويومه.. يوم تسميه الكنانة عيدا» و«يا مصر إن الحق جاء.. فاستقبلي فجر الرجاء.. اليوم قد تم الجلاء»، وفي يوم «زفة القنال» احتضن غناؤها الإنسان المصري «ما أحلاك يا مصري وأنت ع الدفة»، كما أنها واجهت العدوان الثلاثي بصوتها العارم المتفجر في رائعة جاهين والطويل: «والله زمان يا سلاحي» وأعلنت أن «الشعب بيزحف زي النور» وبعد هزيمة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م دخلت في وصلة روح مصرية أصيلة لـ«ثلاث دول».. الخ..

ويقطع حجاب: المؤكد أن تلك المقولات النظرية الخائبة التي شاعت بين بعض اليساريين الشبان قد سقطت وذابت وحدها مع الأيام، وتراجع ذلك التحليل الطبقي المتعسف المغلوط لغناء أم كلثوم مع تنافس وعيهم بالفن والحياة، وحين اعتقلنا في خريف ١٩٦٥م، كنا ندور متشابكي الأيدي في الطرقات بين العنابر في مزرعة طرة ونحن نغني لحن سيد درويش: «بس الأكادة حبسة ظلومة.. يكفينا شرك يادي الحكومة»، أو نصرخ في إنفلات هيستيري بمقطع من الأطلال «التي كانت جديدة آنذاك»: إعطني حريتي أطلق يديا.. إنني أعطيت ما استبقيت شيئا». وتدور

وتدور الأيام، ويتواصى نهر العطاء الكلثومي فياضا عارما، وتحل النكسة فيتنحي عبدالناصر وينطلق صوت ثومة: «إرجع أنت حبيب الشعب.. فعد للشعب»، ويحتضن غناؤها شعبنا الموجوع: «يا صابر الصبر الجميل الله معك.. ما أعظمك يا شعبنا ما أروعك.. جرحك فلسطين يوجعك تزداد وجود.. وتزود الأحزان بارود في مدفعك.. الله معك.. الله معك». وحين تنطلق المقاومة المسلحة الفلسطينية.. يتفجر صوتها حماسا ويشتعل مرحًا: «أصبح عندي الآن بندقية».. ثم تخرج في رحلة المليون لإزالة آثار العدوان.. وتتأكد مكانتها ملكة متوجة على عرش القلوب.. كل القلوب.

ويختتم حجاب شهادته بقوله: «التقيت بتوحيد «صديقي اللدود» بعد سنوات غياب طويلة، وكانت قد جرت في النهر مياه كثيرة، كانت شمس أكتوبر (نصر ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣م) قد أشرقت وغابت ورحلت عنا أم كلثوم، ورحل بعدها رامي، وكان «توحيد» يعود إلى مصر بعد هجرة طويلة إلى الولايات المتحدة، وكنت أندفع فاتحا ذراعي له، و«توحيد يستقبلني بابتسامته هامسا: «أظن كان عندكو حق شوية في كلامك عن شعر أبويا». وأظن إنني قلت له وأنا أعانقه: «لا.. أظن إحنا كنا مفتريين شويتين.. أبوك رامي ده شاعر عبقري، وأم كلثوم دي حاجة ما تتكررش.. إحنا بس إللي ماكناش فاهمين» (*).

ومما له علاقة أيضًا بشهادة الشاعر سيد حجاب، رواية يذكرها سعد الدين وهبة: «بعد أن قدمت قصيدة أبي فراس الحمداني «أراك عصي الدمع» أعتبر الكاتب الصحفي سامي داود القصيدة غير اشتراكية، مشيرًا في ذلك إلى بيت الشعر الذي يقول: «إذا مت ظمآن فلا نزل القطر» وقارن بينه وبين بيت شعر لابن الرومي: «فلا نزلت عليّ، ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاد»، وقال داود أن هذا البيت يحمل معني الاشتراكية عكس ما قاله أبي فراس الحمداني وغنت أم كلثوم، وكان ذلك في

(*) أم كلثوم بين اليمين واليسار – مقال – سيد حجاب – القاهرة – الثلاثاء ١٥ فبراير ٢٠٠٥.

صحيفة الجمهورية وقبل أن يتحول الموضوع إلى قضية يتباري فيها الجميع اتصل عبدالناصر برئيس مجلس الإدارة وقال له: «خلاص أغاني أم كلثوم هتقيسوها إن كانت اشتراكية أم لا».

يرد عمار الشريعي علي هذه المآخذ ،وتحديدًا فيما يتعلق بالتطويل في الغناء ، وخصوصية حالة أم كلثوم استنادا إلى التاريخ ، يقول عمار :: كانت الأغنية العربية حتى مجئ أم كلثوم مبنية على أن مطربًا واحدًا يقوم بالليلة، وكان ضمن مميزات أم كلثوم الشخصية أنها تستطيع تحمل هذا الوضع والاستمرار به، وحين بدأت في العشرينات من القرن العشرين في إحياء حفلات مستقلة، كان حتمًا أن تسير على نفس النهج، بمعني إحياء الليلة من أولها إلى آخرها، وساعدها على ذلك إمكانياتها الشخصية، بمعني ترتيب نفسها على سيطرتها على جمهورها بتقديم الجديد والمختلف أثناء الليلة، وما حدث بعد ذلك هو عملية تفريق، بمعني أن المطرب يصعد إلى المسرح ويستمر لمدة ساعة ونصف يقدم خلالها أكثر من أغنية، فيما يعني أنها أصبحت عادة متوارثة.

يضيف عمار: نوع أغاني أم كلثوم اعتمد في الحفلات على الفكر الاستطرادي من الشعراء.. بيرم التونسي.. مرسي جميل عزيز.. أحمد شفيق كامل.. عبد الفتاح مصطفي.. أحمد رامي.. أو غيرهم، بمعني قول الموضوع في المذهب الواحد على ثلاث مراحل، ساعدهم على هذا أن أم كلثوم التي تقدم أشعارهم لا تدفع الناس إلى الملل من هذا الاستطراد.. أضف إلى هذا وجود السنباطي بجانبها باعتباره أطول الملحنين نفسا في تاريخ الموسيقي العربية.. فهو الموسيقار الذي لاتنتهي عنده الجملة، والمقام لديه يجر آخر، ويدلل عمار على مايقوله : أذكر من تراثنا العربي أن شخصًا سأل أبا العلاء المعري يقصد شتمه: «كيف حال الكلب؟ »، فرد عليه أبو العلاء: «الكلب من لا يعرف للكلب ٩٩ اسمًا».. رياض السنباطي هو الذي عرف لكل شئ في الموسيقي ٩٩ اسمًا، وكل من لعبت معهم أم كلثوم من الملحنين

تمتعوا أيضًا بالنفس الطويل.. ليس شرطًا أن يكون بقوة السنباطي، فالموجي قدم لها مثلا لحن «حانت الأقدار» في سبع دقائق، لكنه يشمل كل الغناء العربي.. وإلي جانب النفس الطويل.. تمتع كل ملحن بسمة خاصة، بدءًا من انسيابية جملة زكريا أحمد وتركيبه الليلي، انتهاءً ببليغ حمدي دقاق المشاعر وصاحب الجملة الحلوة.

يستخلص عمار من ذلك.. أن عبد الناصر كان أحد الأسري في حب أغاني أم كلثوم بهذا النمط.. وأنه لم يحمل رغبة حقيقة في كسر، أو ضرب هذا الأسر بكل حلاوته.. وتعامل مع هذه الحالة على أنها تحقق مكسبًا له كفكر ثوري.. لأنها كانت بالنسبة له صانعة الوجدان.. و ليست هناك مشكلة مادامت هي تصنعه بهذا الشكل .

هذا الاستخلاص من عمار يسلمه إلى نقطة أخري، وهي أن الأغنية اتسمت مع ثورة يوليو ١٩٥٢م وزمنها بالجدية على الرغم من طولها.. وكانت أم كلثوم نموذجًا في ذلك.. تسبقها رغبتها الدائمة في تقديم الأحسن، وأعطاها هذا النهج الجاد والملتزم الفرصة في الفكر الجديد في اللحن والكلمة والأداء، واستفادت من طريقة الارتجال والإعادة التي اتبعتها منذ بدايتها في التعامل مع معارك الثورة، حيث أشعلت بهذه الطريقة مشاعر الناس كلما كانت تقدم أغنية وطنية، والدليل على ذلك الحفل الذي قدمته للضباط بعد الثورة مباشرة وغنت فيه « صوت الوطن ».. كانت تعيد جملة «نحبها من روحنا» وتترك الضباط يرددونها، أي أنها قامت بدور القائد.. كما أنها كانت نموذجًا في الاهتمام باللفظ المنطوق في كيفية إخراجه.. ففي أغنية.. «والله زمان يا سلاحي» وأغنية «يا مجد يامجدنا ياللي اتبنيت عندنا».. دروس عميقة في تعريض الصوت وخفوته أو دروس في الحرف المفخم، وأخذ النفس.. أغانٍ بسيطة لكنه تشمل دروسًا فطرية ليس لكل فنان عربي، وإنما لكل إنسان عربي.

هذه النظرة اللافتة في عمقها من عمار الشريعي تقودنا إلى القول أن عبد الناصر ظل أسيرًا في حب غناء أم كلثوم بنمطه السائد.. وعلى هذه الأرضية تعامل معها

مضيفًا إليها، وحاميًا لها، ومشددًا على قيمتها.. وفي سياق هذا النمط حثها هي ومحمد عبد الوهاب على التعاون الفني، فكانت أغنية «إنت عمري» من كلمات الشاعر أحمد شفيق كامل.

وفي مذكرات سامي شرف سكرتير عبد الناصر قصة اللقاء الفني بين عبد الوهاب وأم كلثوم في « انت عمري » وتدخل عبد الناصر لتحقيقه.

يروي شرف قصة مسئول سابق كان قد أخذ من عبد الوهاب تسجيلات نادرة له لسماعها، وظل هذا المسئول ثلاث شهور كاملة دون أن يعيد هذه التسجيلات، وحكي عبد الوهاب هذا الأمر لسامي شرف الذي نقله بدوره إلى عبد الناصر الذي استدعي هذا المسئول، ولما وجد الأمر حقيقة طلب منه تسليمها فورًا إلى سامي شرف لإعادتها إلى عبد الوهاب...

يقول سامي شرف:

«كان جمال عبد الناصر قد كلفني أيضًا عند تسليمه شرائطه الثمينة بأن أبلغ الفنان العظيم الراحل (عبد الوهاب) عن أمله - أي أمل جمال عبد الناصر - في أن يلتقي قمتا الفن في مصر والعالم العربي في عمل مشترك، وينبهني الرئيس ألا أضغط عند إبداء هذه الرغبة، إلا أنني عندما عرضت الفكرة على الأستاذ محمد عبد الوهاب قال لي: قد تنجح، وقد تفشل، وأكد أنه يحلم ويأمل بهذا اليوم فعلًا » .

يضيف شرف: طبعًا أنا أبلغت الرئيس جمال عبد الناصر بوجهة نظر محمد عبد الوهاب، وجاء عيد العلم ١٩٦٤م، حيث كان قد تقرر تكريم الأستاذ محمد عبد الوهاب وسيدة الغناء العربي أم كلثوم وعندما تقدم عبد الوهاب للمنصة قال له الرئيس:

«امتي حا نسمع لحن لك تغنيه السيدة أم كلثوم؟»

فقال عبد الوهاب: حاضر يا سيادة الرئيس.

ووجه عبد الناصر نفس السؤال لسيدة الغناء العربي فقالت: «يا ريس أنا مستعدة، وجاهزة أغني أي لحن لمحمد».

وكانت «إنت عمري».

يتذكر أحمد شفيق كامل: بعد مطلب عبد الناصر لأم كلثوم، وعبد الوهاب جرت اتصالات بين الاثنين، وكانت كلمات «إنت عمري» لدي عبد الوهاب، كنت أعطيتها له ليقدمها هو بصوته.. وأذكر أن تلحينها لنفسه كان انتهي منه، ولما قرر عرضها على أم كلثوم أجري تعديلات على اللحن بالشكل الذي يناسبها.

يضيف شفيق: أنا لا أقف عادة عند هذه الحكاية التي عاصرتها بنفسي من زاوية أن عبد الناصر طلب فلبي عبد الوهاب كما لبت أم كلثوم.. وإنما أنظر إليها بمعيار فطنة الرجل في نظرته إلى الاثنين.. ونظرته أيضًا إلى عبد الحليم حافظ على أنهم ثروة قومية.

يؤكد شفيق: «كانت نظرة عبد الناصر إلى الفن تنطلق من أنه وعاء هام يجمع فيه كل الجوانب التي تنبه الناس إلى قضايا الوطن..وكانت أم كلثوم بين الجميع لها مكانة خاصة عنده.. وطلبه لتعاونها مع عبد الوهاب كان صافيًا وهادفًا إلى إثراء الفن، والدليل أنه لم يطلب منهما، أوهما فهمًا منه رغبة له مثلًا في تعاونهما في عمل فني يمجد شخصه.. التقط الاثنان إشاراته وأنجزا عملًا فنيًا عاطفيًا.. حملني شخصيًا إلى مزيد من الحب لعبد الناصر، حب لم يغادرني أبدًا منذ إطلاق الرصاص عليه في ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤م».

يعود شفيق إلى ما يسميه بـ «حكاية» طول الأغاني أو قصرها، ليقول: لم يكن في ذهن أحد منا آنذاك تلك القضية.. الأساس كان فيما تقوله الأغنية، وما يحمله اللحن من موسيقي شرقية أصيلة.. كانت حفلات أم كلثوم مزيجًا يجمع غسيل النفس. الفرح.. تجديد الوجدان.. يقظة الضمير.. كان الجمهور يذهب إلى حفلها

في أبهي صوره..أناقة في الملبس..اهتمام بالشكل.. طقوس خاصة.. كان هذا يبدو كنوع من التقاليد الصارمة المحببة إلى النفس..يتساءل شفيق ماذا لو كانت كل هذه التقاليد في الجوانب الأخرى للمجتمع؟.. ويقول: « في هذا الإطار لم يكن يملك أحد القدرة على تغيير نهج أم كلثوم.. هذا ما فهمه عبد الناصر.. وعلي كل فإنه يكفي للغناء العربي أن عبد الناصر رغم مشاغله السياسية الضخمة والصعبة استطاع أن يجمع بين أم كلثوم، وعبد الوهاب.. آه لو فعلها قبل ذلك».

قدم شفيق تلميذ رامي لأم كلثوم بعد ذلك أغنيات ناجحة هي، أمل حياتي، الحب كله، ليلة حب، ورغم نجاحه الباهر في أغنياته الوطنية مع عبدالحليم حافظ إلا أنه لم يكن كذلك مع أم كلثوم ويعلق على هذا:

كان لأم كلثوم شعراء في هذا المجال.. كما كان لعبد الحليم.. المهم أن الحالة كانت في اتساع.. ولا نتوقف عند من يكتب لعبدالحليم، ومن يكتب لأم كلثوم؟ مع ذلك أنا قدمت لها أغنية واحدة فقط، وأذيعت مرة أو مرتين على الأكثر، وكان أثناء انفصال مصر وسوريا عام ١٩٦١:

يقول مطلعها:

«باسم مين يا خارجين ع الشعب قمتم

باسم مين

باسم إسرائيل، والاستعمار، ولا باسم الشعب

الشعب البطل منكم برئ

يا مفرقين ما بين قلوب المولي جمعها في طريق..»

أذكر أن رئيس الإذاعة آنذاك حسني الحديدي.. أبلغني يومها أن أم كلثوم تطلب أغنية عن الانفصال. والمؤكد أن مطلبها هذا جاء نتيجة الصدى الجماهيري الرائع لأغاني عبد الحليم الوطنية التي أكتبها له أنا وصلاح جاهين... كانت لقضية

الوحدة بالنسبة لنا مذاق خاص، فهي من أهم أحلامنا القومية.. وفور إعلان خبر الانفصال كانت الآلة الإعلامية على أشدها.. وكنا نتابع مقاومة مدينة حلب العنيفة للانفصاليين.. سمعت الخبر، فكتبت أكثر من أغنية، واحدة منها قدمتها المجموعة من ألحان على إسماعيل.

يضيف شفيق: فور أن أبلغني الحديدي بطلب أم كلثوم.. كانت كلمات الأغنية جاهزة، وأبلغها الحديدي بذلك، وطلبت مني التوجه على الفور إلى منزلها، وكان عندها رياض السنباطي.. وخلال ثلاث أو أربع ساعات أنجز السنباطي اللحن، وتم تسجيله على الفور في الإذاعة، وبعد إذاعته صدر قرار من جمال عبد الناصر بوقف الحرب الإعلامية بين مصر وسوريا، وشمل القرار كل الأغاني التي تدخل في هذا السياق.. ومنها أغنية «باسم مين».

ويتذكر أحمد سعيد

مثل أي إنسان مخلص يعتز ضميره وتهتز مشاعره كانت الدموع تفر من عيني أم كلثوم وهي تسجل في الإذاعة أغنية « باسم مين » ردا على مؤامرة الانفصال. مما جعل صوتها يهتز وتعطل التسجيل لفترة طويلة، ونحن نتعجل لإذاعة الأغنية لما لأم كلثوم من تأثير في مثل هذه المواقف الصعبة.. وكان رياض السنباطي ملحن الأغنية على أعصابه، وهو رجل مهذب جدًا ويبدو هادئًا جدًا، لكن في أعماقه ثورة مكتومة، ولكنه يسيطر على أعصابه عاطفيًا، ولكن أم كلثوم كانت مهتزة نفسيًا وعصبيًا لوقوع الانفصال ويظهر في دموعها التي لا تستطيع منعها، فتضطر طلبًا لجودة التسجيل أن تعيد مرة أخري، وهكذا إلى أن انتهت منه بعد وقت طويل.

لماذا تأخر التعاون الفني بين عبد الوهاب وأم كلثوم؟.. وهل كان الأمر يحتاج إلى تدخل عبد الناصر شخصيا؟

يقول عبد القادر حاتم وزير الإعلام مع عبدالناصر في الستينيات وحتي

السادات في السبعينات:

ـ نعم كان التعاون بينهما يحتاج إلى تدخل شخصي بحجم وقيمة عبد الناصر.

ويتذكر: جمعتني الصداقة بالاثنين... عبد الوهاب، وأم كلثوم.. وفي نفس الوقت عملت مع عبد الناصر.. وكان لعبد الوهاب، وأم كلثوم المبررات الخاصة في عدم التعاون بينهما. وأبرزها أن أم كلثوم كانت تتوجس من أهداف عبد الوهاب من هذا التعاون، لأنه يريد استثمار صوتها لصالح موسيقاه، وأذكر أنه بعد انتهاء الحفل الذي قدمت فيه «أنت عمري»، اتصلت بي تليفونيًا، وقالت: «شوف عبد الوهاب عمل الأغنية كلها موسيقي»، وفي اتصال تليفوني بعبد الوهاب، فوجئت به يسألني: إيه رأيك في موسيقي الأغنية؟، دون أن يسأل عن أداء أم كلثوم».

كانت الأغنية الكلثومية العاطفية على طولها هي، كما هي لدي عبدالناصر، وفي حالتها الإجمالية مبدعة تستحق الكثير والكثير.. لا يسحب من رصيدها أي وجهات نظر سلبية في تقييم أغنيتها، أو طريقة تقديمها في حفلاتها التي اعتبرها فتحي رضوان بطرف خفي «عملية تعذيب»، وإنما جمعت من وجهة نظر عبد الناصر كما يقول د. على الراعي «تسرية الفن وتسييسه». وتأسيسًا على ذلك كان موقف عبد الناصر الحاسم في ضرورة حصول أم كلثوم على جائزة الدولة التقديرية باعتبارها مبدعة، وليست مؤدية عام ١٩٦٧، وذلك بعد ثماني سنوات كاملة من ترشيحها.. ففي عام ١٩٥٩م رشحتها اللجنة الموسيقية العليا، وقالت في مبررات الترشيح:

إنها تقوم بأعمال فنية ممتازة من حيث التوجيه الفني، والأداء الذي انفردت به، بما يضفي عليه قوة التعبير والابتكار، ويجعل من تصرفها فيه «لونًا من التأليف بالغ الأثر في استكمال التأليف الأصلي، وقد رفعت أم كلثوم المستوي الفني وساهمت بأكبر نصيب في نهضة الموسيقي العربية وتطويرها مع المحافظة على طابعها، مؤدية بذلك الخدمة الكبري للقومية العربية عامة وبلادها خاصة، وهي إذ تقوم بأداء هذه

الرسالة الكريمة منذ حقبة طويلة من الزمن، جاهدة في نشرها وعرضها وتنفيذها، فإنها قد نجحت النجاح الأوفى الذي يجعلها جديرة بأن تتوج جهودها بهذا التقدير السامي.

هذا هو نص التقرير الذي تقدمت به اللجنة الموسيقية العليا في عام ١٩٥٩، ولكن اللجنة الخاصة التي تراجع الترشيحات داخل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وكانت برئاسة الدكتور حسين فوزي، رفضت منح أم كلثوم جائزة الدولة التقديرية؛ لأنها مؤدية وليست مؤلفة، ويبدو أن الرأي كان متداولًا ومعروفًا مقدمًا، ولذلك كانت اللجنة العليا حريصة في تقريرها على أن تثبت أن أداء أم كلثوم يجعل من تصرفها فيه لونًا من التأليف بالغ الأثر في استكمال التأليف الأصلي، على الرغم من ذلك لم تمنح أم كلثوم جائزة إلا في عام ١٩٦٧م، بعد تدخل جمال عبد الناصر شخصيًا ودهشته الشديدة مما سمعه عن رأي المسئولين عن الموسيقي في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب من أن أم كلثوم لا تستحقها؛ لأنها مؤدية وليست مؤلفة، وفي عام ١٩٦٧م اجتمعت اللجنة برئاسة توفيق الحكيم، وقالت:

«قدمت أم كلثوم إلى الدولة في جميع المناسبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الأحداث الكبيرة.. وأشاعت التذوق الجمالي عن طريق اللحن والنغم بصوتها الفريد.. الأمر الذي فرض نفسه فنيًا على جميع المستويات المحلية والعربية، فاستطاعت أن تضيف إلى التاريخ الفني مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة استمرار التراث الفني، وفي الوقت نفسه بعيدة عن التجمد، مما أعطاها التطوير الحي المستمر».

ومن تقرير لجنة توفيق الحكيم كما يقول سعد الدين وهبة: أنها اعتمدت في قرارها لاستحقاق أم كلثوم للجائزة، على أسباب سياسية و ثقافية وليست فنية،

فهي تتجاوب مع الأحداث القومية، وهي (تشيع التذوق الجمالي) وهي (تضيف إلى التاريخ الفني مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة استمرار التراث بعيدة عن التجمد).. ويؤكد سعد الدين وهبة أن تدخل عبد الناصر لم يكن نتيجة شكوى من أم كلثوم إليه، فهي لم تستثمر علاقتها في شيء لصالحها، يؤكد ذلك الكاتب الصحفي محمود عوض قائلًا:« كانت علاقتي الخاصة بأم كلثوم كسرًا لقواعد علاقتها التقليدية مع أهل الفكر والثقافة.. كنت صغيرًا في السن، ولم يكن من بين أصدقائها أقل من رئيس تحرير، أو كاتب كبير.. وطوال فترة لقاءاتي بها، لم تتحدث أبدا على خصوصية علاقتها بعبد الناصر، وأذكر أنها تعاملت مع مشكلتين كبيرتين آنذاك لحلهما بمفردها دون اللجوء إليه».